بعيداً عن أريحا

قصة بقلم محمود الريماوي

لقد انفصلت عنها بشكل لم تكن تتصوره او تنتظره ، هكذا غفلا عن ارادتك وامام العالم كله . ما أضيع ايامك الان ، في واضحة النهار كانت اعصابك تتساقط من الانفعال .. ستشاهد المدينة التي تزوج فيها ابوك ، ستشاهدها يافا ثم تغني للنصر .. كنت تهيىء اصابعك وحنجرتك للغناء عن النصر ، لكن مصير مدينتك هو الاهم لانها صلب الموضوع ، ثم حدث ما لم يكن في الحسبان .

كنت تقرف منها ، من شوارعها الطويلة العريضة الممتدة ، التي لا ينتظرك فيها صديق ، أو يختبىء وراء اشجارها ميعاد !

كنت تسميها العجوز ، لانها لم تمنح قلبك الدفء لحظة واحدة ، وجسدك الفعل لو مرة واحدة يتيمة . وتمقت فيها الناس ، كل الناس المتناثرين والموزعين في احيائها المتعددة ، صبيحة » و « الشيخ صباح » و « كتف الواد » منطقة سكناك .. اولئك الناس كانوا يتسللون الى صمتك بنفس السحنة وتعبيرات الوجوه . لم تنتم اليهم يوما . كنت تقول ما الذي يربطني بهم غير العادة ، تكرار العادة ، والعادة قبر مفتوح دائما يستعد للالتهام وانت تنشد الحياة والحركة . مقاهيها خبرتها حتى اقلها نظافة واكثرها شبهات ، وكانت تشدك قرابة من نوع معين الى زواياها وكراسيها وطاولاتها وروادها . هنا كتحرق ساعاتك في الثرثرة والضحك ولعب الورق ، ثم تقذفك المقاهي الى الشوارع الفسيحة ، تتحسس جيوبك الفارغة وشفاهك الناشفة ، وتلعن حفرة الفراغ التي أدمنت على السقوط فيها كل يوم .

لم تكن تحب من المدينة سوى مكتباتها ، تقف على ابوابها تتصفح المجلات والجرائد ، وتشتري ما يسمح به جيبك وتعود الى بيتك تقرأ ما حملته من الاوراق كالمأخوذ ، وتظل تقرأ وتعود الى القراءة كلما داهم الصقيع اعماقك . لكنك كنت واثقا بأن توفر المكتبات ليس عزاء لك ، فالمكتبات موجودة في اضيق المدن واصغرها ، فماذا يعني وجود مكتبة بسيطة متواضعة او اكثر في مدينتك المصابة على خلاف مدن العالم بالحساسية التاريخية ؟! لا شيء . وهناك ايضا المدرسة . المدرسة كانت صليبك اليومي وعذابك اليومي . منذ تعرفت الى المطالعة الشخصية أصبحت تحتقر المدرسة ، طلابها ومدرسيها وكتبها ونظامها بل وكل شيء فيها . كانت المدرسة تهيىء لك مستقبلا جاهزا ، مستقبلا جافا ومملا لا تطمح اليه ولا تبني اليه جسرا . حتى دروس التدريب العسكري كنت افشل الطلاب فيها ، ولانك كنت تبحث عن مستقبل آخر يحمل مضمونا مغايرا تجسد فيه شخصيتك وتحقق ذاتك ، وتحافظ على نقاء جلدك الخصوصي .

وكنت تحلم بذلك اليوم الاخضر المنشود ، اليوم الذي تهجر فيه مدينتك وترحل الى الابد ، وتعانق المجهول والاخر . كنت ترصد ذلك اليوم وتنذر له عمرك وشبابك .

لكنك لم تكن تتصور ، او حتى تستطيع ان تتصور ، ان تكون فارا ، مجرد فار كالاخرين تهرب عندما تموء القطة .. يا عارك عندما تموء اجبن القطط في العالم !

كنت تعتقد انك ستجتاز المدرسة بسلام ، وتذهب الى الجامعة ، وهناك تتحول حياتك ويصبح لها مذاقا اخر ، اكثر حيوية وفاعلية واقل بلادة وموتا .

وكنت تكتب وتكتب . وتقول لاصدقائك لا بد ان يأتي ذلك اليوم. حتما سيأتي ويكون المنعطف المنتظر .

متى كنت تتصور ان ينعطف مصيرك بهذا الشكل ؟

وانت اليوم ملقى في حضن مدينة كبيرة صاخبة ، تعلك لسانك من الجوع وتحك جلدك من البرد ، وتعصر ريقك من العطش . نعال الغرباء تسحق قامتك الهزيلة المقوسة ، وعيونهم تصفعك عندما تعزف عن وجهك المرفوض .

اليوم ، يصح ان يقال عنه يوم الفاجعة . انت مفجوع رغم مكابرتك . هل تنكر انك كلب ضال يتسول موائد الغرباء وانك فأر جبان تحاصرك قطط العالم كلها ، وانك لا تستطيع حتى ان تنتظم في جمعية الرفق بالحيوانات ؟!

هكذا .. مصفوع على قفاك ، والمنازل الشاهقة يبول اصحابها المترفون على رأسك ، وانت بعيد عن الحياة قربك الشديد من الموت .

اعتدت ألا تكون مخادعا ، امنت بالصدق والمباشرة والوضوح . الان لا تملك الا ان تكون مخادعا ، وان تفر من وهج الحقيقة التي تواجهك وتتحداك سافرة .. غادرت مدينتك كالظل عن الشمس ، ولم يبق فيك شيء يستحق ان يغادرك .

لست بعيدا عنها بمقدار ستين كيلومترا . ابعد من هذه المسافة، حتى لو ركضت اليها ـ ما اقسى واطرف مفارقات الاشياء ! ـ لن تستطيع ان تدركها قبل ستين عاما . لم يحدث هذا قبل شهرين . لا بل بعد ان تخليت عن بستانك . متى حدث ذلك ؟ عميق هو الزمن الذي سافر الى الابد . قبل الميلاد ، قبل ميلادك ، وهل ولد العالم قبل ان تولد ؟!..

قلت لافراد عائلتك مذعورا ، يجب ان نخرج ، واذا بقينا سنتعرض للموت ، وتعللت بالاطفال ، جدفت على براءة الاطفال واقنعت والدك بالخروج .

حملت فراشك على كتفك كالفجري ، انزلقت في الشوارع ، والهة الخوف ترقص في جوفك .

قال لك جارك والدهشة تتمطى على وجهه : « لا يصح . هذا عيب » . وقلت له : « سترى .. الخطر محدق ، وبعد الروح لا شيء يهم » .

وتدحرج معك شقيقك الصغير . ايقظته من النوم . لا بد انه كان يحلم بالحارة التي يلعب بها امام البيت .. يحاور الكرة الاسفنجية ويتقلب على نزواتها . قلت له : « نريد ان نتمشى » . صوب عيونه اليك كالمسدس ، وقالت عيناه باصرار وثقة : « انت كاذب » . عندها ايقنت انك كاذب ، فعلا ، وانه ليس بينك وبين شمس الصدق علاقة.

لكنك كنت حريصا على جسدك من ان ينفق بفعل القنابل والرصاص ، وجعلته يرافقك واخذت تركض في الطريق ، كاللص يتبعه صاحب الدار .

تجاوزت افراد عائلتك قبل ان يضرب الغزاة الجسر ، ثم تجاوزت الجسر وظللت تركض ، لم تكن تعي ما يحدث ، كانك قد اقحمت على فيلم سينمائي انت بطله ، لكنك على غير استعداد لدور البطولة . المهم انك كنت خائفا من النار ، لم تكن تدري ان النار ، تمنح الاشياء ـ انضرها واطيبها . امتياز الولادة والحضور !

لم تكن غبيا ، كنت تدري ، ولكنك كنت واثقا بأن بقاء جسدك هو الهم الاول والاخير .

الندم

عاد الندم الافاق ،
عاد وصولته تقتلع الامن من الاعماق ،
كالليل الماجن . كالريح المرعبة الاصوات ،
يتسلل من كل الساحات ،
فيزيد الموت الى الاموات ،
الندم القاتل قد عاد الينا ،
ففرشنا الحزن . وغنينا ،
وحمدنا مقدمه الميمون وصلينا ،
ودعونا كل الناس الى الصلوات ،
لكن يا للخيبة ،
المعبد لم يستوعب كل الناس ،
قفل الباقون بلا احساس ،
عادوا لكهوف الندم الحيران ،
ندموا حين راوا ان المعبد يشكو الضيق ،
ففريق يشكو لفريق ،
والارض الرخوة تهتز ،
وتكاد تغور الاقدام ،
يا ويح الانسان ،
كم صار يتيما في الزمن الظالم ،
كم يشكو رعبه ،
يغرق في الطين الى الركبه ،
فالارض الرحبة ،
ضاقت بالانسان ،

المفوضية اليمنية باديس ابابا

احمد الآخذي

واخذت معالم اريحا تبتعد عنك رويدا ، رويدا .. الدخان يرتفع فوق المدينة ويسلب انفاس اصحابها ، وكنت مرتاحا لذلك . لقد ابتعدت عن الخطر .. وبعد ذلك تذكرت افراد عائلتك ، قلقت على مصيرهم ، ورحت تنتظرهم بقرب شجرة .. وفي الوقت نفسه خفت ان يكونوا قد حصلوا على سيارة او باص ، وتخطوك الى عمان .

لحظة ، ومر باص مكتظا بالمردين . وكان شقيقك يلوح بيديه لك ، توقف الباص قربك ، صعدت اليه كانك صاعد الى بوابة الفرج .. تحسست مكان قلبك ، اخذت تجس النبض ، اسعدتك النتيجة ، لقد كان طبيعيا .

مضى الباص في فراره اللاهث ، وانت مكوم مع الفراش . كان كل همك ان تصل الى عمان ، بذلك تصل الى مرفأ الخلاص وتكون بعيدا عن اريحا ، عن القبر .

●

الان واكثر من اي وقت مضى ، اصبحت الامور اكثر وضوحا ورعبا .

خرجت قبل ان يخرج احد من المدينة . كنت تمقتها حتى الغثيان وحتى ساعة الاختيار الصعبة .

ارتميت في عمان . اصبحت تتجول في الشوارع وحيدا ، هائما على وجهك .

تعرفت الى المقاهي ، مناخ المقاهي اكثر المناخات ملاءمة لنفسيتك ومزاجك .

صافحت اصدقاءك الهاربين ، هناتهم بالسلامة وطول البقاء ، ضحكت وتضاحكت معهم ، ولم تتورع مشاركتهم لعب الورق في انسيابية غير مألوفة ، دخنت من سجائرهم ، ودخنوا من سجائرك كما يحدث في المعتاد .

وكان كل املك ان لا تتجدد الحرب ثانية ، لئلا يتجدد الخطر ، ويستانف الخوف رحلته عبر اعماقك . لم تحدث الحرب ثانية ، ركنت الى اطمئنان خادر نباتي ، واصبحت تخطط للمستقبل (كانه كان ينتظرك مستقبل) وبمنتهى الانسجام .

ظلت الحياة هي الحياة ، لم تفقد نعمة العيش ، حزنت حزنا مجانيا رخيصا على الذين احترقوا وتفسخوا .. في الوقت نفسه ابتهجت لانك لم تكن واحدا منهم ، ولانك كنت حاذقا وذكيا ، هربت في الوقت المناسب . اسعفك حدسك المريض ، وافلحت ان تظل على قيد الحياة ، كالكلاب التي تهرب من حجارة الاطفال الى العراء ...

●

انت الان صريع الصدمة ..

قال لك موظف الجوازات الذي يعالج معاملاتك : ـ أين تقيم ؟

سرحت برهة ، وأصبحت وجها لوجه مع بيتك القديم والحديقة والاصدقاء . انتقلت الى ما انت فيه ، تساءلت بينما الموظف في ذروة الانزعاج والدهشة ، تساءلت : اين تقيم ايامي ؟ ارتد السؤال اليك ، لكنك كنت ملجوما .

ـ تكلم يا اخي .. في القمر انت مقيم ؟!

وتمنيت لو تكون مقيما حقا في القمر ، او اي مكان معزول منبوذ ..

قلت له باستغراب : ـ انا لست مقيما !

قهقه في وجهك الموظف وقال : ـ الاخ .. ابن بطوطة ؟!

تضايقت من هذا الاستفزاز حتى كدت ان تنفجر ، قلت له باقتضاب : شكرا . وانصرفت ...

بصقك المكان الى الشارع العام ، أخذت أقدامك تطوف ارجاءه على غير هدى .. اخترقت منتصف الشارع ، وبقيت تسير في المنتصف كالسكير او المجنون ..

زعقت من خلف ظهرك سيارة يؤمن قائدها بمصر السرعة . لكنك لم تصغ السمع .

كان يفترض فيك العقل مهما يكن بسيطا ، وبالتالي الابتعاد ، ولكنك امعنت في عنادك هه .. ماذا ؟! السيارة تصدمك . تقذفك الى ناحية الشارع كالنفاية ، جثة تسبح في دمائها ..

لكنك نجوت باعجوبة . لم يمت جسدك .

أفقت فاذا انت في المستشفى . واذا باطرافك مستعمرة للالم والتشنج .

لحظتها تذكرت الذين سقطوا على مشارف اريحا ، وتذكرت جيرانك الذين اصروا على البقاء في اريحا ، وتمنيت لو كان جسدك سليما لكي تتسلل .

بينما انت مسجون ، وجسدك سجنك .

واخترقتك مشاعر حادة كالسكاكين لا قبل لك بتحملها .. اخذت تحدق في الضمادات ، والاقمشة الملتفة باحكام حول اطرافك ، وبدون مقدمات كانت الدموع تنزف بغزارة من عينيك .

عندئذ ، كان الزمن يمارس الفعل ، وانت تكتشف انك ابعد ما تكون عن اريحا ..

تقوقعت حول بعضك ورحت تبكي وتبكي ..

تجمع حولك المرضون والممرضات والنزلاء يمطرونك بنظرات الحزن والشفقة ، فيما انت تغوص في السرير ، الى القاع .. الى القاع ..

عمان ـ الاردن

محمود الريماوي